خاتمـــة

فقيـــه مصر وعالمهـا

إن مصر بتاريخها الطويل العظيم أحبت العلم والعلماء وظل أهل مصر فى شتى العصور يكرمون العلماء ويشيدون بالعظماء منهم مهما اختلفت اتجاهاتهم وتباينت توجهاتهم. لأن أهل مصر – خاصة – ما عرفوا يوما لغة التعصب لدين أو لعرق فهم يتصفون دائما بالطيبة واللين والتسامح. وترجع أسباب ذلك إلى تاريخها الدينى الطويل وإلى حضارتها العظيمة الضاربة جذورها فى أعماق التاريخ وإلى انتشار أبنائها حول نيلها العظيم الذى تعلموا منه لغة الهدوء والسكينة وشربوا من مياهه شراب الحب والطهر والود والتعاون والتآخى والكرم.

إن مصر برصيدها الهائل ومداخراتها القيمة قد حرمت على أبنائها الاشتراك فى أى صراعات قد يقوم بها نفر قليل فى الداخل أو يشتغل بها بعض سكان جارتها.

وفى ظل الدولة الإسلامية لم تشترك مصر فى الصراعات والخلافات التى دارت على أرض شبه الجزيرة العربية منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى يومنا هذا ولكنها كانت الصدر الحنون لمهاجرى المسلمين إليها خاصة أهل بيت النبوة من الرجال والسيدات علماء وغير علماء فاستقبلهم أهل مصر بالترحيب والإجلال والإكرام فعاشوا على أرضها تحوطهم عناية الله ورعايته وهم مشمولون بحب أهل مصر وحنانهم ثم ضم أجسادهم الطاهرة ثرى مصر التى تطيبت بأجسادهم ورفاتهم رضى الله عنهم وأرضاهم. وها هى مساجدهم بمآذنها التى تعلو فى سماء مصر يؤمها الزائرون من كل فج عميق يتبركون بالعترة الطاهرة ويتوسلون بهم إلى الله تعالى ليستجيب منهم الدعاء ويتولاهم برحمته إنه سميع مجيب. ولقد طاف الإمام الشافعى بكبريات البلاد الإسلامية حتى انتهى به المطاف إلى مصر فوجد فى مصر أتباع الإمامين أبى حنيفة ومالك رضى الله

عنهما. وأخذ الشافعى رضى الله عنه يلقى دروسه فى مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه والتف حوله التلاميذ والأتباع حتى أن بعض أتباع المذاهب الأخرى تركوا ما هم عليه وجلسوا إلى الشافعى يستمعون ويكتبون حتى انتشر أمره وذاع صيته واستحسن الناس طريقته. ثم أخذ يعيد النظر فيما كتبه بالعراق. وفى مصر غير بعض أرائه التى كان قد بثها بالعراق. فأملى كتبه الجديدة وأعاد صياغة بعض كتبه القديمة وذاع خبره فى أرجاء مصر وكثر التلاميذ والأعوان مما أثار عليه حقد البعض حتى أن بعض علماء المالكية كان يدعو عليه أن يميته الله عز وجل منهم أشهب بن عبد العزيز المالكى وعيسى بن المنكدر ووشى به البعض عند حاكم مصر «السرى بن الحكم» وطلبوا منه أن يطرده من مصر وقد كاد أن يحدث ذلك لولا أن الله تعالى قد أمات الحاكم بعد ثلاثة أيام.

وفى مصر الكريمة النفى سيدنا الإمام بكريمة الدارين نفيسة العلوم والمعارف رضى الله عنها وهى من أبناء عمومته فاستمع منها وأخذت عنه وقالوا إنه كان يؤمها فى صلاة التراويح فى شهر رمضان حتى لقى ربه عز وجل وهى عنه راضية وجئ بجثمانه إليها فصلت عليه صلاة الجنازة خلف أبى يعقوب البويطى. ثم قالت: رحم الله الشافعى قد كان رجلا يحسن الوضوء.

ومعلوم أن الوضوء هو مدخل العبادة وهو فعل ما تستباح به الصلاة والطواف ومس المصحف وحمله وهكذا يقترن اسم الإمام الشافعى رضى الله عنه فى مصر بتدريس فقه الكتاب والسنة خصوصا وبتدريس العلم عموما وبالمدرسة المتخصصة للتعليم لأول مرة فى تاريخ الإسلام بمصر.

لقد ناصر الشافعى السنة فى مصر كما رفع شأنها من قبل فى بلاد الحجاز واليمن والعراق وقد بين للناس أن السنة موضحة للقرآن ومبينة له ولولاها ما استطعنا أن نتعرف على أحكام الله عز وجل. قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: «ولو أن امرءا قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا فى القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة ولكان. لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر فى ذلك.

ويقول: ولو أن امرءا لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط أو يترك كل ما اختلفوا فيه مما جاءت فيه النصوص لكان فاسقا بإجماع الأمة».

فالعمل بالسنة أمر حتمى وضرورة شرعية كما قرر الإمام الشافعى فى كتابه «الرسالة» كما ذكرنا سلفا والسنة عند الشافعى لا تأتى بحكم ليس له أصل فى القرآن فهو مصدر الشريعة وهى مبينة لها. وكما يقول الشافعى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: (فما أحل وحرم فإنما بين عن الله كما بين الصلاة).

ورأى الشافعى: أن النسخ يكون فى الكتاب ويكون فى السنة. وأن القرآن ينسخه القرآن ولا يمكن أن تنسخ السنة حكم القرآن لأنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه كما كان المبتدئ لفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه. جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه).

ورأى أن السنة تبين نسخ القرآن كما تبين القرآن ويرى أن السنة تنسخها السنة حتى أن القرآن لا ينسخها إلا ببيان من السنة ذاتها لأنها مبينة للقرآن دائما وأولى أن يظهر ما ينسخ من السنن بسنن أخرى. ولو خالف نص القرآن سنة. دون أن تجاريه سنة جديدة لعمل بنص القرآن.

ولقد بينت السنة دائما النسخ الذى وقع فى الكتاب أو فى السنن. يقول الإمام الشافعى: ولو نسخ الله حكما مما قال. لسن رسول الله - ﷺ - فيما نسخه سنة ولو جاز أن يقال قدسن رسول الله - ﷺ - سنة ثم نسخ سنته بالقرآن ولا يؤثر عن رسول الله السنة الناسخة جاز أن يقال فيما حرم رسول الله من البيوع كلها قد يحتمل أن يكون حرمها قبل أن ينزل عليه ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ وفيمن رجم من الزناة قد يحتمل أن يكون الرجم منسوخا لقول الله ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾.

وجاز أن يقال «ولجاز رد كل حديث عن رسول الله ﷺ بأن يقال إذا لم يجده مثل التنزيل..» ولو لا وضوح البيان فى النسخ لوقع شر مستطير [1]. ا.هـ.

لقد عاب أمير المؤمنين: على بن أبى طالب رضى الله عنه على رجل رآه

---

(١) الإمام الشافعى الجندى بتصرف ٣٣٥، ٣٣٦.

بالمسجد الجامع بالكوفة وهو يحدث الناس ويخلط الأمر بالنهى والإباحة بالحظر فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال هلكت وأهلكت. وتقول بعض الروايات: إنه طرده من المسجد.

ولقد نقض الشافعى القول بوجوب تواتر السنة لتكون حجة وبين أن الحديث إذا ما ثبت صحة وروده عن رسول الله ﷺ متواترا أو أحادا – فإنه يجب العمل به.

لذلك أحبه المصريون أيضا ولقبوه بناصر السنة مثل ما قال اليمنيون والحجازيون والعراقيون هذا: وقد انتسب إلى المذهب الشافعى الكثير من العلماء الأعلام والوجهاء الأفذاذ من المحققين ومن بلغ حد الاجتهاد. وهذا إن دل على شئ فإنه إنما يدل على سلامة منهج الإمام الشافعى رضى الله عنه والرضا بطريقته الأصولية القائمة على الكتاب والسنة وهو يعد عند المصريين من كبار أئمتهم وأستاذ علمائهم.

وقد تحققت نبوءة الرسول ﷺ (يخرج فيكم عالم قريش يملأ طباق الأرض علما).

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه (ما من أحد مس محبرة إلا وللشافعى عليه منة).

فيا علماء الأمّة: هلا كان لكم فى الإمام الشافعى رضى الله عنه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لم تأخذه فى الله لومة لائم ولم يهزه اعتراض معترض. لم يجامل فى الفتوى ولم يتبع النفس والهوى وإنما طلب العلم لله ودرسه وأملاه لله وهاجر فى طلبه لله فرفع الله له شانه وأشاع أمره وأكثر أتباعه إلى يومنا هذا.

رحم الله الشافعى ورضى عنه وجزاه عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء.

والله ولى التوفيق ...